نَدَمْ قَاتِلْ

تطلع إلى النهر الجارى أمامه قبل أن يغمض عينيه فى ألم، عاد يفتحهما ببطء، جاءت له صفحة الماء حمراء اللون، اللون الأحمر صار يزعجه، يأتيه ليغطى كل الصور التى تقع عليها عيناه، يفسد عليه جمال ما يشاهده، تذكر قول أخيه له قبل أن يبطش به:

- لئن بسطت يدك إلىَّ لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك كان سمحا، بارا، كريما، طيبا، ربما هذا سبب كرهه له، ربما هو كل شئ، كان يود أن يكونه، ربما محاولته أن يستأثر بحب والديه له فقط، فلا يريد شريكا له فى الحب، حب أبويه وحبها هى، مرت من أمامه لتملأ كفيها بالماء لتشرب، تأملها طويلا، جميلة ولتتخيل كم هى جميلة تخيل كيف كانت الأنثى الأولى التى اشتقت منها كل نساء العالم الجميلات، تخيل منبع الأنوثة بلا افتعال أو تصنع، ولجمالها هذا ثمن، هو دفع هذا الثمن غاليا، دم أخيه، انتبهت إلى نظراته التى تحرق جسدها فهتفت به :

- ما بك؟

- أنت السبب فى كل ما أعانيه.

- أأنا من قال لك اقتل أخاك وخذ امرأته لتهرب بها إلى أقاصى الأرض.
- لم تقولى لى بلسانك، ولكن جمالك قالها بألف وسيلة وألف لغة.

- بل طمعك فى كل ما حولك.

- كتب على جنسنا الشقاء بسبب النساء.

- وهل أشقيتك، منذ هربت بى إلى هنا، ولم أذكر لك شيئا عن الموضوع، حاولت أن أنساه، واعتقدت أنك أيضا قد نسيته.

- لا أستطيع أن أنساه، أرى عينيه فى عينيك، وشفتيه فى شفتيك، وملامح وجهه وسط تقاطيع وجهك.

- إذن لتتركنى أعد إلى والدى.

- لا أستطيع، كتب علىَّ أن أرى مصدر شقائى كل يوم.

- ما كانت النساء أبدا سبب شقاء الرجال.

- وأمنا؟

- ما لها، أم رؤوم.

- أليست سبب هبوطنا إلى الأرض؟!

- لم يذكر والدنا شيئا مثل هذا أبدا، ولو على سبيل المزاح.

- كل شقاء فى الأرض سببه النساء.
- سقطت أول قطرة دم على الأرض بسببك.
- اول قطرة كانت من حيض أمنا.
- وثانيها من دم أخيك.
- وددت لو عاد للحياة مرة أخرى لأعانقه وأقبله وأعيدك له، ولكنه لن يعود.
- كنت أول من أزهق روحا على الأرض.
- وانتهكت ميثاق الأخوة.
- قتلت أخاك.

obeikan.com

ضايقه تذكيرها إياه بجريمة القتل فى كل عبارة فقال معاندا:
- ربما لو لم تكونى من نصيبه! ولو لو يكن مطمئنا إلى فوزه بك لقتلنى هو نفسه.
- عدت تلقى باللوم علىَّ!
- ما أنا بملوم لك، فحتى لو فعلت، لن يعيده ذلك حيا، لن يعيد لى رضا والدينا.
- استغفر ربك إذن.
- وهل يغفر؟
- رحمته وسعت كل شئ، ألم يرو لنا أبونا وأمنا عن رحمته بهما وجمعهما معاً بعد الشتات.
- ترى ما حالهما الآن؟ هل أنجبا آخرين؟ هل يذكرانى أم يذكرانه؟ لقد أفسدت عليهما صفو دنياهما ودنياه وحياتى وحياتك وأحلام اختنا ليوثا.
- لقد صار ندمك عظيما، أشعر بك عندما يجافيك النوم بجانبي؟.
- وتصمتين؟
- منشغلة عنك بالطفل الذى يتحرك فى أحشائى.
- سيخرج ويصير قاتلا مثل أبيه.
- اصمت.
- هكذا كتب علينا أن نعيش على الأرض، قتلة وقتلى، ظلمة ومظلومين، هكذا كتب على بنى آدم أن يصيروا وسطا بين الملائكة والشياطين.

حسام الخطيب